ابن أبى الإصبع المصرى
وجهوده في المتشابه القرآنى

إعداد الدكتور

يوسف بن عبد الله الأنصارى

الأستاذ المشارك بقسم البلاغة والنقد - جامعة أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي سيد الأولين والآخرين المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله وعلي آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن كثيراً من علوم القرآن المتصلة بالنص تعد بحق من ميادين البلاغة القرآنية التي لا نجد لها مكانا في كتب البلاغيين المتأخرين، وهي مما يجب أن تصرف إليه همم الباحثين بالدراسة والبحث وصولاً منهم إلي إبراز صفحات من بلاغة البيان القرآني المعجز.

ويعد علم المتشابه القرآني واحداً من تلك الميادين الثرية، وحقلاً خصبًا يحتاج إلى توفير مزيد من جهود العلماء والباحثين لارتياد مجاهيله وفتح مغاليقه وكشف بعض أسراره البلاغية المبثوثة في تضاعيف آياته.

ولهذا فقد حرصت خدمة منى لكتاب ربنا العظيم أن يكون موضوع هذا البحث الذي بين يديك في علم المتشابه القرآني، من خلال إبراز جهود علم من أعلام البلاغة القرآنية في هذا العلم الشريف، جعلت عنوانه "ابن أبي الإصبع وجهوده في المتشابه القرآني".

وقد دفعني إلي دراسة هذا الموضوع المبارك أمران:

١-إيماني العميق في أن تتضافر الجهود حول دراسة القرآن الكريم، مما جعلني أحرص أشد الحرص علي الإسهام بدراسة في علم المتشابهة

القرآني.

٢- حرصي الشديد علي بيان جهد ابن أبي الإصبع في توجيه الآيات المتشابهات في القرآن الكريم.

ويتكون البحث من مقدمة، وتمهيد تناولت فيه التعريف بابن أبي الإصبع، وتحديد المراد بالمتشابه القرآني وأهم كتبه، ومن فصل واحد:

استقصيت فيه جميع المواطن التي تناول فيها المؤلف الآيات المتشابهات والتي يدور حولها هذا البحث، وإبراز جهد المؤلف في هذا الجانب.

ثم خاتمة أوجزت فيها أهم النتائج التي أفاد منها الباحث في إعداده لهذا البحث.

وفي الختام أضرع إلي الله تعالي أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن ينفع به، وأن يثقل به موازيني يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي إليه بقلب سليم، والله الموفق والهادى إلي الصواب، وصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

التمهيد:

يدور الحديث فيه حول مبحثين، أو لهما:في التعريف بابن أبي الإصبع، وثانيهما:عن تحديد المراد بمصطلح المتشابه اللفظي في القرآن وأبرز المؤلفات التي تناولته في تراثنا الإسلامي.

المبحث الأول

التعريف بابن أبي الإصبع

ليس من اليسير جدا علي الباحث حين تكتب دراسة مفصلة عن علم من أعلامنا- رحمهم الله جميعا- تستقصي حياته الاجتماعية والسياسية والعلمية، ومشاركته في ميادين العلم المختلفة أن يقدم جديدا حين يريد الكتابة عن هذه الشخصية التي سبق بالكتابة عنها وخاصة حين لا يجد في المصادر التي بين يديه ما يسعفه بجديد يمكن تقديمه للقراء.

ولهذا فسنقتصر في الترجمة لابن أبي الإصبع علي ذكر نبذة مختصرة عنه تكون وافية بالمراد:

اسمه ونسبه:

هو زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد بن جعفر بن الحسن المعروف بابن أبى الإصبع العدواني المصري[1].

---

(١) انظر ترجمته في الذيل الشافعي علي المنهل الصافي ١/ ٤١٩ ومعاهد التنصيص ٤/ ١٨٠ ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٦٥ والإعلام ٤/ ٣٠ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥/ ٣٤٢ وبديع القرآن مقدمة المحقق ﷺ ٦٧ وتحرير التحبير ص٤.

وهناك شك في نسبته العدواني، لأن كثيراً من المصادر تقتصر في تعريفه علي ابن أبي الإصبع المصري، وإن كانت بعض هذه المصادر-وهي قليلة- تذكره بالعدواني، وقد كفانا الدكتور حفني شرف هذه النسبة بقوله (من أين أتت هذه الكنية؟ ولم لقب بالعدواني؟ أيتصل نسبه بذي الإصبع الشاعر القديم؟

لعل هذه الكنية كنية أبيه، " وأبوه كني لأمر ما بأبي الإصبع، فأضاف إليه الناس "العدواني" لما كان" أبو الإصبع" يحضر في الذهن"ذا الإصبع" وخاصة أن لقب العدواني لم يأت إلا في مصدر واحد.

أو لقب بذلك تيمنا لما كان له من شهرة ذائعة في الشعر، وإني لا أستبعد اتصال نسبه بذي الإصبع الشاعر الجاهلي، وإن كانت سلسلة النسب التي وردت له فيما وصلت إليه من كتب التراجم والطبقات والتاريخ لا توصل نسبه إلي العصر الجاهلي، كما أنه لم يرد علي لسانه أو في مؤلفاته ما يشير إلي نسبته إلي "ذي الإصبع"[1].

مولده:

ولد بمصر سنة ٥٨٥ هـ، وقيل سنة ٥٨٩هـ.

نشأته العلمية:

نشأ ابن أبي الإصبع منذ الصغر محبا للعلم فأكب ينهل من معينه، واجتهد لتحصيلة من كل سبيل، فأخذ العلم عن العلماء البارزين من

---

(١) بديع القرآن مقدمة المحقق ص ٦٧.

علـماء عصره الـذين كانت تـعج بها مـدينة القـاهرة باعتـبارها منـارة من منارات العلم التي يفيد إليها الطلاب من مختلف بقاع البلدان الإسلامية.

ونبغ فـي الشعر وتـفوق فيه فـأصبح شاعـر مصر الأوحد، وأدبـيا من أدبائها وعالما من علمائها المشهورين، له التصانيف في الأدب وعلوم القرآن الكريم وهي بلا شك تدل علي علو كعبه في البلاغة والنقد وعلوم القرآن.

ولعل الدليـل علي تفوقه في البـلاغة علي طريقة الأدباء مـن المتقدمين من علـماء البلاغة من أمـثال الشيخ عـبد القاهر الجـرجاني كتبه وبـخاصة تحرير التحـبير وبديع القرآن وغيرهـا.، والمتصفح في هذين الـكتابين يدرك تفوق ابن أبي الإصبع فـي البلاغة وإحاطته الدقيقة لفـنونها المتعددة، وآراء علمائهـا المختلفة، ودراسته للبلاغـة لم تقف عند جميع ألوانـها بل تعدت ذلك إلي نقد تلك الألوان، وتـغيير تسمية ما لم تعجبه تـسميته، أو لم يجد اسم يطـابق مسمـاه، كما فعـل بأبواب الاجدانـي "التسبـيغ" و "التشـريع" فسـمي الأول "تشابه الأطراف" والثاني " الـتوأم" وهذا دال كما تري علي تفوقه ومـقدرته العلمـية، وفي كتابه بـديع القرآن كف علـي دراسة الأنواع البديعـية في القرآن مستـخلصا لها من كـتابه تحرير التـحبير، مستقـصيا في كثير من الشواهد القرآنية العديد من الألوان البديعية[1].

وفي الكتابين نعـدد ليس بالقليل من المواضع تدل علي مـقدرته النقدية تعقب فيها بعض الشعراء بنقد شعرهم.

---

(١) انظر تحرير التحبير ص٦.

مؤلفاته:

لابن أبي الإصبع كتب علمية عديدة تدل علي رسوخ قدمه في العلم، بعضها وصل إلينا وبعضها الآخر لم يصل إلينا لا يزال مفقودا، طوته يد النسيان، من أهمها:

١-تحرير التحبير:

هو كتاب ألفه في بديع الشعر والنثر، بين فيه السبب الذي دفعه إلي تأليف هذا الكتاب بقوله(وبعد: فإني رأيت ألقاب محاسن الكلام التي نعتت بالبديع قد انتهت إلي عدد منه أصول وفروع، فأصوله، ما أشار إليها ابن المعتز في بديعه، وقدامة في نقده، لأنهما أول من عني بتأليف ذلك،.....ولما أمرني من لا محيد لي عن أمره، و لامحيص عن رسمه سيد الفضلاء وقدوة البلغاء.... القاضي الفاضل شرف الدين بن القاضي الأجل الفقيه الورع الرضي جلال الدين المكرم أبي الحسن موسي بن الحسن بن سناء الملك..... بجمع ما في كتب الناس من ذلك علي سبيل الاختصار من الشواهد، وتجنب الإطالة بذكر كل الاشتقاق إلا إيضاح مشكل أو كشف غامض أو زيادة بسط في الكلام، علي أنه من كتاب الله تعالي، أو في بيت قد أهمل تقصي الكلام عليه، بادرت بامتثال أمره.....)[1]

---

(١) المصدر السابق ص ٨٣/ ٩٤ .

٢-بديع القرآن:

وهو كتاب اختصره من كتابه تحرير التحبير، لبيان ما جاء من الألوان البديعية في القرآن الكريم، وقد صرح بذلك في مقدمته لهذا الكتاب بقوله(كتاب بديع القرآن الذي هو تتمة للإعجاز المترجم "بيان البرهان" أفردته من كتاب هو وظيفة عمري، وثمرة اشتغالي في إبان شيبتي.....)[١].

٣-الخواطر السوانح في أسرار الفواتح:

تكلم فيه عن أسرار فواتح سور القرآن الكريم، وقد ذكره في كتاب بديع القرآن.[١]

٤-كتاب الأمثال:

ذكره في كتابه بديع القرآن بقوله(وقد استقصيت جميع أمثال الكتاب العزيز من السور علي ترتيبها، وبوبته علي حروف المعجم في كتاب كبير، أتبعت فيه أمثال القرآن بأمثال الدواوين الستة في السنة: البخارى ومسلم والموطأ والترمذى والنسائي وسنن أبي داود، مرتبا علي الحروف أيضا، واتبعت ذلك أمثال الأشعار الستة، وأمثال الحماسة، وأمثال قصائد العرب المفردات كلامية العرب وقصيدة سويد ابن أبي كاهل، ومرثية أبي ذؤيب، ومقصورة ابن دريد، ولامية العجم للطغرائي وأمثال أعيان المولدين كأبي نواس، وأبي تمام، والبحترى، وابن الرومي، والمتنبي، و سميته "درر الأمثال"

---

(١) بديع القرآن ص ٣/ ، ٤

(١) المصدر السابق ص ٢٥٤.

فمن أراد الوقوف علي ذلك فعليه به)[1].

٥- صحاح المدائح:

وهو ديوان شعر في مدح الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين وأهل بيته ذكره في بديع القرآن(وجدها في جزء أفردته من شعرى بمدائحه-ﷺ- ومدائح الخلفاء الراشدين الأربعة من أصحابه، وقطع في مدائح أهل بيته- عليهم السلام _ وسميته صحاح المدائح)[2].

٦- الكافلة في تأويل تلك عشرة كاملة:

وقد ذكر هذا الكتاب في بديع القرآن. [3]

٧- الشافية في علم القافية:

وهذا الكتاب يتصل موضوعه بعلم القافية، وقد ذكر في بديع القرآن[4].

٨- الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخصومه:

يتضح موضوع الكتاب من عنوانه، فهو كتاب في النقد، يرد فيه علي معارضي قدامة، وآراء خصومه، وقد ذكره في بديع القرآن قائلا عنه(والآخر في الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وكلام خصومه، وعملت منه قطعة وشغلت عن تمامه[5].

---

(١) السابق ص ٧٨ وما بعدها.

(٢) السابق ص ٢٩١.

(٣) السابق ص ٢٥٤.

(٤) السابق ص ١٦٦.

(٥) المرجع السابق ذكره.

٩- وصيته إلي الكتاب والشعراء:

وهذا الكاتب عبارة عن شرح وإيضاح لوصية أبي تمام للبحتري وقد ذكره في تحرير التحبير بقوله(وكنت قد اطلعت علي وصية وصي بها أبوتمام أبا عبادة البحتري في عمل الشعر، كان أبو تمام ارتجلها، فجاءت محتاجة إلي تحرير بعض معانيها، وإيضاح ما أشكل منها، وزيادات يفتقر إليها فحررت منها ما يجب تحريره) [١].

١٠- الكواكب الدرية في نظم القواعد الدينية:

هذا الكتاب ذكره له صاحب معجم المؤلفين.

وفاته:

بعد حياة حافلة بالعلم والعطاء وافته المنية في ١٣ من شهر شوال سنة ٦٥٤هـ بالقاهرة، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته[٣].

---

(١) انظر تحرير التحبير ص ٤٠٦.

(٢) معجم المؤلفين ٥/ ٢٦٥.

(٣) انظر الدليل الشافي علي المنهل الصافي ١/ ٤١٩ ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٦٥وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥/ ٣٤٢.

المبحث الثاني

مصطلح المتشابه القرآني وأهم كتبه.

يعد علم المتشابه القرآني من أجل علوم القرآن الكريم وأشدها صعوبة وأكثر خفاء، وقد ظهرت حوله لعلمائنا السابقين مؤلفات عظيمة القدر جليلة الفائدة سنعرض لها بعد تحديد المراد بهذا المصطلح.

مصطلح علم توجيه المتشابه القرآني:

هو علم يعني بدراسة وتوجيه ما تكرر من آياته لفظا، أو اختلف بتقديم أو تأخير، أو بعض زيادة في التعبير) [1].

فهو علم يقوم بتوجيه اختلاف الصياغة في الآيات المتشابهات إما بالتقديم أو التأخير أو الزيادة أو الحذف.

وقد عني علماؤنا رحمهم الله بهذا العلم فأفردوه بالتأليف والتصنيف، وفي هذا الصدد يقول السيوطي(أفرده بالتصنيف خلق، أولهم- فيما أحسب- الكسائي، ونظمه السخاوى، وألف في توجيهه الكرماني كتابه البرهان في متشابه القرآن، وأحسن منه درة التنزيل وغرة التأويل "لأبي عبد الله الرازى، وأحسن من هذا" ملاك التأويل ": لأبي جعفر بن الزبير، ولم أقف عليه، وللقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاب لطيف سماه" كشف المعاني عن المتشابهة من المثاني وفي كاتبي أسرار التنزيل المسمي" قطف الأزهار في كشف الأزهار" من ذلك الجم الغفير) [2].

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٤٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٣٣٩ وراجع التناسب البياني في القرآن لأحمد أبو زيد ٣٧ وما بعدها.

ويضيف قائلاً موضحاً المراد به (والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتي وفواصل مختلفة، بأن تأتي في موضع واحد مقدماً، وفي آخر مؤخراً، كقوله في البقرة" وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة" وفي الأعراف " وقولا حطة وادخلوا الباب سجداً" وفي البقرة" وما أهل به لغير الله " وسائر القرآن" وما أهل لغير الله به"، أو في موضع بزيادة ، وفي آخر بدونها، نحو " سواء عليهم أأنذرتهم" وفي البقرة" ويكون الدين لله" وفي الأنفال " كله لله".

أو في موضع معرفاً، وفي آخر منكراً، أو مفرداً وفي آخر جمعاً، أو بحرف وفي آخر بحرف آخر، أو مد غما وفي آخر مفكوكاً وهذا النوع يتداخل مع نوع المناسبات"[1]

أهم المؤلفات في متشابه القرآن:

ظهرت في تراثنا كتب عديدة عنيت بدراسة الآيات المتشابهات في القرآن الكريم بعضها وصل إلينا وطبع وبعضها الآخر إما مفقودة أو لا تزال محفوظة في خزائن المكتبات في بلدان العالم المختلفة، سأقوم بعرضها علي حسب ما أتيح لي التعرف والاطلاع عليها ، وهي علي النحو الآتي:

١-متشابه القرآن لأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفي سنة ١٨٩هـ وهو أول من ألف في هذا العلم كما نص علي ذلك

(١) . المصدر السابق ٣/ ٣٣٩ وما بعدها وراجع البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١١٢.

السيوطي[1]. . وقد طبع الكتاب في طرابلس بتحقيق الدكتور صبيح التميمي، قد صرح فيه الكسائي بسبب تأليفه بقوله (ليكون كتابنا هذا عوناً للقارىء علي قراءته وتقويته علي حفظه).

٢- رسالة في متشابه التعبير باللفظ في آيات القرآن لأبي بكر عبد الله بن سليمان ابن الأشعث الأزدى السجستاني المعروف بأبي داود المتوفى سنة٣١٦هـ[2].

٣-متشابه القرآن العظيم لأبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى المتوفى سنة ٣٣٦هـ.[3]

٤-درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الأبيات المتشابهات في كتاب الله العزيز لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢٠هـ والكتاب طبع في بيروت برواية ابن أبي الفرج الأردستاني.

٥-البرهان في توجيه متشابه القرآن لأبي القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني المتوفى حوالي سنة ٥٠٥هـ وقد طبع الكتاب في بيروت بتحقيق عبد القادر أحمد عطا.

٦-هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه القرآن لأبي الحسن علي بن محمد السخاوى، والكتاب منظومة في المتشابه القرآني،

---

(١) الإتقان ٣/ ٣٣٩.

(٢) انظر ص بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم للدكتور محمد الصامل ص ١٥

(٣) المرجع السابق ، الموضع نفسه.

وقد طبع الكتاب في طبعة علمية بتحقيق عبد القادر الحسني في مركز جامعة الماجد بالإمارات.

٧-ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه متشابه اللفظ من أي التنزيل لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي المتوفى سنة ٧٠٨هـ وقد طبع الكتاب في دار الغرب ببيروت بتحقيق سعيد الفلاح.

٨- كشف المعاني في المتشابه من المثاني لشيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٣هـ وقد نشر الكتاب ضمن منشورات جامعة الدراسات الإسلامية بكراتشي- باكستان بتحقيق الدكتور عبد الجواد خلف رئيس الجامعة نفسها.

٩-بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الفيروز آبادى المتوفى سنة ٨١٨هـ عني المؤلف في الجزء الأول بالمتشابه القرآني وقد طبع الكتاب بتحقيق الدكتور محمد علي النجار .

١٠-فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الشيخ زكريا لأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦هـ وقد طبع الكتاب عدة طبعات، طبع بمكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي. وطبع الكتاب محققاً مرتين، بتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، وبتحقيق عبد السميع محمد أحمد حسنين. وغيرها من الكتب التي لم اقف عليها، والتي لا يزال بعضها مخطوطاً، ذكر عدداً منها بعض الباحثين المعاصرين.(١)

---

(١) المرجع السابق ص٢٣-٢٩.

الفصل الأول

من بلاغة المتشابه القرآني عند ابن أبي الإصبع

الموضع الأول:(*)

«الجعل »أول موضع كشف فيه ابن أبي الإصبع عن بلاغة النظم المعجز في الآيات المتشابهات ما ذكره في بيان الفرق بين قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾(١) وقوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾(٢).

حيث تسأل عن وجه زيادة تأكيد الفعل "جعلناه" باللام في الأولي، وخلوه منها في الآية الثانية للوقوف علي بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم بقوله (فإن قيل: لم أكد الفعل باللام في قوله في الزرع "لو نشاء لجعلناه حطاماً" ولم يؤكده في الماء حيث قال " لو نشاء جعلناه أجاجاً" قلت :لأن الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاماً مما يحتمل أن يتوهم أنه من فعل الزارع، ولهذا قال سبحانه:" أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون" أو يتوهم خصبه من سقي الماء، وأن جفافه من حرارة الشمس وعدم السقي، و تواتر مرور الإعصار، فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك كله علي الحقيقة، وأنه قادر علي جعله لو شاء حطاماً في حالة نموه وزمن

(*) سأعرض هذه المواضع علي حسب ترتيب ورودها في بديع القرآن ثم في تحرير التحبير.

(١) الواقعة "٦٣-٦٥".

(٢) الواقعة "٦٨-٧٠".

شبيته ونضارته، فلما كان هذا التوهم محتملا أوجبت البلاغة توكيد فعل الجعل فيه وإسناده لـزارعه علي الحقيقة ومنشئه لرفع هذا التوهم، ولما كان إنزال الماء من السماء محالا بما لا يتطرق احتمال توهم متوهم أن أحداً من جميع الخلق قادر عليه لم يحتج إلي توكيد الفعل في جعله أجاجاً، فأنه لا يمكن أن يتوهم أحد أن أحداً ينزل الماء من السماء أجاجاً ولا عذبا الذي هو أسهل من الأول وأهون) [1]

ويقول عنهما في موضع آخر (ومن هذا القسم قوله تعالي أيضاً﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾بزيادة لام التوكيد لأن أمر الزرع يحتمل أن يظن الضعيف باديء الأمر أنه من متولي أمره، وجعله حطاماً من فعل الشمس، وعدم السقي تأكد للإخبار بأنه من فعله سبحانه لدفع هذا الاحتمال بخلاف الماء فإنه لايظن أحد أن أحداً قادر علي إنزاله من المزن غير الله تعالي، فلم يحتج إلي توكيد)[2].

وبالرجوع إلي ما وقفت عليه من كتب المتشابه القرآني لم أجد للعلماء كلاماً حول هذه الآيات سوى ما ذكره بدر الدين بن جماعة- وهو في مجمله ليس ذا بال يمكن أن يشفي غلة الباحث ـ بقوله" قوله تعالي {لو نشاء لجعلناه حطاماً }وقال تعالي في الماء:﴿جعلناه أجاجاً﴾ جوابه: أن جعل الزرع حطاماً إذهاب له بالكلية صوزة ومنفعة، وجعل الماء أجاجاً لم

(١) بديع القرآن ص٦٩ وانظر تحرير التحبير ص٢٦٧.
(٢) المصدر السابق ص٣٠٦.

يذهب به صورة، وربما انتفع في غير الشرب والله أعلم)[1].

وردد المفسرون ما ذكره الزمخشري بقوله(يجوز أن يقال هذه اللام مفيدة معني التوكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة علي أن أمر المطعوم مقدم علي أمر المشروب، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعًا للمطعوم) [2].

غير أن الألوسي بعد أن نقل ما ذكره الزمخشري نجده يفضل ما ذكره ابن الأثير في المثل السائر بقوله (وخير منه عندي قول ابن الأثير في المثل السائر : إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحا أسهل إمكاناً في العرف والعادة، والموجود من الملح أكثر من الماء العذب ، وكثيرا ما إذا جرت المياه العذبة علي الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلي الملوحة فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلي زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل اللام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق، وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع يكون عن سخط شديد، فلذا قريء باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره)[3].

فما ذكره ابن الأثير متجه إلي إبراز الفرق بين زيادة اللام في آية المطعوم دون آية المشروب، وله من الوجاهة والقبول ما ليس لكلام

---

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ص٣٤٩ وما بعدها.

(٢) الكشاف ٤/ ٥٧ وراجع التفسير الكبير ٢٩/ ١٨٢ وما بعدها والحر المحيط ٨/ ٢١٢وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٥، ومسائل الرازى وأجوبتها ص٣٣٥، ونظم الدرر ١٩/ ٢٢٤ وروح المعاني ٢٧/ ١٤٩.

(٣) روح المعاني ٢٧/ ١٤٩ وانظر المثل السائر ٢/ ٢٣٦.

الزمخشري ومن تابعة من المفسرين وإن كانا متقاربين في أصل المعني، لأن كلام الزمخشري يصلح أن يكون إيضاحاً إلي بيان سر تقديم آية المطعوم علي آية المشروب علي النحو الذي أفصح عنه ابن الزبير الغرناطي بقوله(للسائل أن يسأل عن وجه هذا التقديم؟...، ,أما تقديم الأكل علي الشرب فمعقول الرتبة وبحسب ذلك ورد المقول المنقول فقال تعالي: ﴿كلوا واشربوا﴾فالشرب في الغالب للاستمرار وليس أوليًا في الغذاء،..... وإنما ورد ذكره مع الأكل تالياً لكونه في الرتبة ثانيا فقال تعالي وكلوا واشربوا)[1].

ونقل الطاهر بن عاشور ما ذكره الشيخ محمد بن سعيد الحجري التونسي في حاشيته علي شرح الأشموني للألفية المسماة "زواهر الكواكب" عن كتاب "البرهان في إعجاز القرآن" (هذا الاسم سمي به كتابان أحدهما لكمال الدين محمد المعروف بالزملكاني والثاني لابن أبي الإصبع، أنه قال : فإن قيل لم أكد الفعل باللام في الزرع ولم يؤكد في الماء، قلت لأن الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتي يعود حطاماً مما يحتمل أنه من فعل الزارع، أو أنه من سقي الماء،وجفافه من عدم السقي، فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك علي الحقيقة وأنه قادر علي جعله حطاماً في حال نموه لو شاء، ,وإنزال الماء من السماء مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه غير الله تعالي)[2].

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ١٠٦٧ وما بعدها.

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٢٥.

وهذا الكلام الذي نقله الطاهر عن الشيخ محمد سعيد، واحتار في معرفة صاحبه أهو للزملكاني أم لابن أبي الإصبع؟ باعتبار أن لكل منهما كتاباً بعنوان إعجاز القرآن.

الحقيقة التي لا مرية فيها أن هذا النص الذي ذكره الطاهر هو لابن أبي الإصبع وليس للزملكاني لسببين: أو لهما: أن هذا الكلام منقول بفصه ونصه عن ابن أبي الإصبع من كتابه بديع القرآن الذي تقدم عرضه فيما سبق، الثاني: أن كتاب بديع القرآن جعله ابن أبي الإصبع تتمه لكتابه بيان البرهان، وفي هذا الصدد يقول ابن أبي الإصبع:(كتاب بديع القرآن الذي هو تتمة للإعجاز المترجم" بيان البرهان" أفردته من كتاب هو وظيفة عمري وثمرة اشتغالي بالعلم...)[1].

وإضافة إلي ما تقدم فقد سألني بعض أهل العلم قبل شروعي في كتابة هذا البحث بزمن طويل عن سر مجيء اللام في الآية الأولي وعدم مجيئها في الآية الثانية؟ وقذف الله في نفسي وقت ذاك كلاما استحسنته وحمدت الله تعالي علي حسن تيسيره وعظيم توفيقه، وأجبت السائل قائلا: لعل مرد اختلاف الصياغة راجع إلي اختلاف الأمر المستفهم عنه بفعل الرؤية حيث كان في الأول الزرع، وفي الثانية الماء ولما كان للإنسان دخل في نمو النبات ونضارته بتعهده بالسقيا والعناية والرعاية، فقد أكد الله سبحانه وتعالي قدرته لهذا الإنسان المغتر الذي يظن علي أنه قادر علي

---

(١) بديع القرآن ص٣.

إبقاء النبات زهرا ناضرا علي جعله حطاماً علي الرغم من عناية الإنسان به وعهده بالسقيا، أما الماء فلما لم يكن للإنسان دخل فيه البتة لم يؤكد الفعل، لأن الحق سبحانه كما أنه تفضل تكرما منه بإنزال الماء عذبا سائغا، فهو قادر علي جعله ابتداء أجاجاً لا يستساغ لشربه.

الموضوع الثاني:

يقول ابن أبي الإصبع (ومن التغاير تغاير المعني لمغايرة اللفظ، مثل قوله تعالي في سورة الأنعام:﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾[1]إفإن ذلك غير قوله في هذا المعني بعينه في بني إسرائيل ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾[2] فقدم في الآية الأولي وعده بالرزق للآباء علي وعده برزق الأبناء، وفي الثاني بالعكس، وسبب المغايرة بينهما أن الخطاب في الأنعام للفقراء بدليل قوله تعالي : من إملاق، فاقتضت البلاغة تقديم وعدهم أعني الآباء المملقين مما يغنيهم من الرزق، واقتصت البلاغة تكميل المعني بعدة الأبناء بعد عدة الآباء ليكمل سكون النفس، ولم يبق لها تعلق بشيء، وفي بني إسرائيل الخطاب للأغنياء بدليل قوله تعالي" خشية إملاق" فإنه لا يخشى الفقر إلي الغني، أما الفقير ففقره حاصل، فاقتضت البلاغة تقديم وعد الأبناء بالرزق، ليشير علي أنه سبحانه هو الذي يرزق الأبناء ليزول ما توهم الأغنياء من انهم

---

(١) الأنعام"١٥١"

(٢) الإسراء"١٣١"

بانفاقهم علي الأبناء يصيرون إلي الفقر بعد الغني، ثم كمل الطمأنينة بعدتهم بالرزق بعد عدة أبنائهم، والله أعلم)[1].

وذكر ابن أبي الإصبع في موضع آخر في الآيتين السابقتين كلاماً لا يكاد يختلف في جملته عن ما سبق سوي تغيير يسير في العبارة، حيث يقول(ومن الإيضاح نوع آخر يأتي موضحاً لإشكال في جملتين من الكلام متضمنتين معني واحداً قد اختلفت العبارة فيهما، فيتوجه علي الظاهر إشكال أوجبه اختلاف العبارة، فيجب إيضاحه، كقوله تعالي في الأنعام {ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم }وقال سبحانه في بني إسرائيل {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم }وتقرير الإشكال أن المعني في الآيتين هو النهي عن قتل الأولاد لما تقتضيه زيادة الكلف من الفقر، والعدة بأن الرزق من عند الله، فيقال: لم قال في الآية الأولي " نحن نرزقكم وإياهم" بتقديم: عدة الوالدين بالرزق علي عدة الأولاد به وبالعكس في الآية الثانية، وهل يجوز العكس فيهما أم لا يجوز إلي ما جاء به التنزيل...؟ ولما علم سبحانه أن ذلك قد يشكل علي من لم ينعم النظر في الكلام جاء في الآيتين قيد يوضح الإشكال، وذلك قوله تعالي في الأولي" من إملاق" ليشير إلي أن الخطاب للفقراء دون الأغنياء، فأوجبت البلاغة عدتهم بالرزق وتكميل العدة برزق الأولاد لاحتمال أن يظنوا أنهم إذا رزقوا رزقا فاستغنوا به استفدته كلفة الأولاد،

(١) بديع القرآن ص١٠٦ وانظر تحرير التحبير ص٥٦١.

فعادوا إلي الفقر، وقال في الآية الثانية﴿ خشية إملاق﴾ ليشير إلى أن الخطاب للأغنياء دون الفقراء، الذي يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغني، فوجب تقديم العدة برزق الأولاد ليعلموا أنه سبحانه المتحمل عنهم كلفتهم، فيأمنوا ما خافوه من الفقر ثم كمل العدة بضمان رزقهم بعد الأولاد، ليعلموا أن ما بايديهم من الغني هو الذي رزقه، وهو قادر علي أن يرزقهم)[1].

فما ذكره ابن أبى الإصبع من أسرار المغايرة في صياغة هاتين الآيتين مستمد من كلام العلماء السابقين ممن عنوا بالتفسير أو بالمتشابه اللفظي في القرآن، فلا يكاد يخلوا كتاب في هذين العلمين من كلام مسهب أوموجز حولهما، وسنكتفي في هذا الصدد بنقل ما ذكره أبو حيان، وأبو جعفر بن الزبير، علي اعتبار أن أحدهما من المفسرين، والآخر من علماء المتشابه القرآنى يقول أبو حيان(جاء التركيب هنا" نحن نرزقكم وإياهم" وفي الإسراء" نحن نرزقهم وإياكم" فيمكن أن يكون من التفنن في الكلام، ويمكن أن يقال في هذه الاية جاء" من إملاق" فظاهره حصول الإملاق للوالد لا توقعه وخشيته وإن كان واجدا للمال، فبدأ أولاً بقوله" نحن نرزقكم" خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق، وإحالة الرزق علي الخلاق الرزاق، ثم عطف عليهم الأولاد، وأما في الإسراء فظاهر التركيب أنهم موسرون، وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية

---

(١) المصدر السابق ص٢٦٠.

منه، فبدىء فيه بقوله" نحن نرزقهم" إخباراً بتكفله تعالي برزقهم، فلستم أنتهم رازقيهم، وعطف عليهم الآباء، وصارت الآيتان مفيدتين معنيين، أحدهما: أن الآباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم، والآخر: أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين لتوقع الإملاق وخشيته) (١).

ويقول أبو جعفر ابن الزبير(ففي الأولي " من إملاق" "ونرزقكم" بتقديم ضمير المخاطبين، فللسائل أن يسال عن وجه هذا الاختلاف في الآيتين مع اتحاد المقصد فيهما؟ والجواب عن ذلك- والله أعلم ـ أن المخاطبين بآية الأنعام إنما كان فعلهم من اجل الفقر الحاصل حين فعلهم ذلك، فالحاصل لهم علي قتلهم قد كان حاصلاً حال قتلهم، فقيل " من إملاق" أي من أجل الإملاق الحاصل، ثم قيل لهم" نحن نرزقكم وإياهم" فقدم رزقه تعالي لهم لحصول فقرهم في الحال ليكون امنع لهم، وكأن السياق يشعر بتشفيع الأولاد في رفع فقر الاباء القاتلين، فكأن قد قيل لهم" إنما ترزقون بهم فلاتقتلوهم،فتأكد تقديم ضمير الآباء لهذا الغرض، أما الآية الأخرى فقصد بها كفار العرب، وكان وأدهم البنات خشية الفقر المتوقع والعجز عن مؤنتهن فيما يتوقعونه مستقبلا فقيل : " خشية إملاق " فجعلت الخشية هى العلة في فعلهم، فانتصبت علي ذلك والمعلول الذي هو الإملاق لم يقع بعد وضمن تعالي لهم رزقهم ورزق أولادهم، ودفع ذلك المتوقع ليرفع ذلك خشيتهم، فلهذا قدم هنا ضمير الأولاد ثم عطف

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٥١ وحاشية الشهاب/ ٤/ ١٣٨ والفتوحات الإلهية٢/ ١٠٨ وروح المعاني ٨/ ٥٤، ١٥/ ٦٦التحرير والتنوير٨/ ١٥٨،١٥/ ٨٧.

عليه ضمير الآباء، وكان الأهم هنا فقدم، وجاء كل في الموضعين علي ما يناسب، والله أعلم) [1].

ولعلك ترى اتفاق ما ذكره المفسرون وعلماء المتشابه مع ما ذكره ابن أبي الإصبع وإن كان في كلامه زيادة تفصيل، وتقرير بأن تقديم ما قدم، وتأخير ما أخر في الآيتين الكريمتين هو ما اقتضته البلاغة وأوجبته.

الموضع الثالث:

يقول ابن أبي الإصبع موضحاً الفرق في أن القرآن الكريم جمع ضمير الخالدين في الجنة، ووحد الخالدين في النار في قوله تعالي(تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها)[2] وقوله تعالي﴿ومن يعص الله ورسوله يدخله ناراً خالداً فيها﴾[3] ذهب بعض المفسرين إلي أن ضمير الخالدين مشير إلي أن الوقوف مع حدود الله وطاعته أمر متبع يجب الاقتداء به.وكل من عمل به تناوله هذا الوعد، وتعدى حدود الله تعالي معصيته" ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" فلا يجوز متابعة من يعمل به، فلذلك أتي بضمير الخالد في النار موحداً، وذهب غير هذا إلي أن ضمير الخالدين في الجنة إنما جمع لقصد الملاءمة في النظم فإنه سبحانه لما قال " جنات" بلفظ الجمع جاورها بلفظ

---

(١)ملاك التأويل وما بعدها، وانظر درة التنزيل للإسكافي ص١٣٥ وما بعدها، وبصائر ذوي التمييز١/ ١٩٩ وكشف المعاني في المتشابه من المثاني ص ١٦٩والبرهان في توجيه متشابه القرآن ص٦٩.

(٢) النساء"١٣".

(٣) . النساء"١٤".

الجمع في "خالدين" ولما قال " ناراً" بلفظ الإفراد فقال " خالداً فيها" ليوصف الكلام بالملاءمة، وحسن الجوار، فيكون داخلا في باب ائتلاف الألفاظ بمعانيها، وهذا أشبه من الأول.

والذي عندي: أن ضمير الخالدين في الجنة إنما جمع لأن كل من دخل الجنة خالداً فيها أبدًا، وإن تفاوتت درجات الخالدين بدليل قوله تعالي" وما هم منها بمخرجين" مطلقاً في حق كل من دخلها وأهل النار فيهم الخالد من الكفار والمنافقين، وغير الخالدين من عصاه المؤمنين فساغ الجمع هناك، ولم يسغ ههنا لأن الخالدين في النار فرقة واحدة، ولأن المنافقين كفار في الباطن، والخالدين في جنات طبقات وجماعات علي مقادير درجاتهم بحسب ما اعتد لهم به من أعمالهم وإن عمهم الخلود)[1].

ويقول عنهما أيضاً(فالنكتة التى من أجلها جاءت "الجنات" بلفظ الجمع، والخالد فيها بلفظ الجمع، ولفظ النار بلفظ واحدة، والخالد فيها بلفظ الواحدة، أن أهل الطاعة وفوا بالطاعات ولذلك قال سبحانه وتعالي:﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ كل أهل الطاعة وإن تعددت طاعاتهم، وتفاوتت درجاتهم، فكلهم خالدون، بدليل قوله تعالي:﴿ وما هم منها بمخرجين﴾ وإن تعددت المساكن، فلهذا أتي لفظ مساكن أهل الطاعة مجموعاً، وأتت هيئتهم بالخلود مجموعة أيضاً، ولما

---

(١) بديع القرآن ص١٣٠ وما بعدها.

كان المخلدون في النار فرقة واحدة كان مسكنهم واحداً، فاقتضت البلاغة مجيء مسكنهم بلفظ الوحدة، وصفة خلودهم بلفظ الوحدة، كما اقتضت صفة أهل الطاعة لفظ الجمع، ومساكنهم كذلك)[1].

واضح مما تقدم أن ابن أبي الإصبع ذكر ثلاثة آراء في سر جمع الخالدين في الجنة، وإفراد الخالد في النار أو لهما وثانيهما نقلهما عن المفسرين، أما الثالث فهو كما افصح من عنده، استخلصه بفكره.

وبالرجوع إلي ما وقفت عليه من كتب التفسير- وهي كثيرة- لأتبين عن من من المفسرين نقل هذين الرأيين؟ الحقيقة أنني لم أظفر بشيء مما ذكره ابن أبي الإصبع نصاً وإن وقفت ضمناً علي أقوال للمفسرين تقترب قليلاً منهما، علي نحو ما نجده في كلام أبي حيان(قال ابن عطية وجمع الخالدين علي معني" من" بعد أن تقدم الإفراد مراعاة لـلفظ" من" وعكس هذا لا يجوز انتهي،.....قيل وأفرد "خالداً" هنا وجمع في " خالدين فيها" لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة، وإذا شفع في غيره دخلها، والعاصي لا يدخل النار به غيره فبقي وحيداً)[2].

وبالنظر في الآراء الثلاثة السابقة نجد أن الرأيين اللذين نقلهما عن المفسرين لهما من الوجاهة والقبول لدي ما ليس للرأي الذي نص علي أنه من عنده لذهابه فيه إلي أن ضمير الخالدين في الجنة جيء به مجموعاً لأن

---

(١) السابق ص٢١٣.

(٢) البحر المحيط ٣/ ١٩٢ ويراجع الكشاف١/ ٥١١ والتفسير الكبير ٩/ ٢٣٥ وغرائب القرآن ٤/ ٢١٤ وروح المعاني ٤/ ٢٣٣.

كل من دخل الجنة من أهل الطاعة خالداً فيها وإن تفاوتت درجات الخالدين بدليل قوله تعالي" وما هم منها بمخرجين" مطلقا وفى القرآن الكريم هذه الاية في حق كل من دخلها، أما إفراد الخالد في النار فلأن أهل النار فيهم الخالد كالكفار والمنافقين، وفيهم غير الخالدين من عصاه المؤمنين، ولأن الخالدين في النار فرقة واحدة، هذا مجمل رأيه وهو كما ترى لا يتفق مع واقع البشرية علي مر الدهور بقلة المؤمنين وكثرة أهل الكفر والعصيان.

ولعل خير تعليل قرأته في إيضاح الفرق بين هاتين الآيتين، وأرتضيه- لأنه صادف في نفسي قبولا له- ما ذكره أحد المعاصرين في قوله(فقد جمع " خالدين- في وصف ثواب الطائعين، وأفرده في وصف عقاب " العاصين" فكان في الجمع تكريم بالأنس، وفي الإفراد تعذيب بالوحشة والاغتراب، وقد استشرف هذا المعني العلامة أبو السعود فكان من بوارق التوفيق والهداية قال رحمه الله: ولعل إيثار الإفراد ههنا نظراً إلي ظاهر اللفظ،واختيار الجمع هناك نظراً إلي المعني، للإيذان بأن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس، كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الإنفراد أشد في استجلاب الوحشة)[1].

(١)الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للأفراد والجمع في القرآن ص٢٩ وما بعدها وراجع تفسير أبي السعود ١/ ٦٦٢ وروح العاني ٤/ ٢٣٣.

الموضع الرابع:

أبرز ابن أبي الإصبع في هذا الموضوع جانباً من جوانب البلاغة القرآنية من خلال بيانه للحكمة التي عدل من أجلها القرآن الكريم عما يقتضيه الظاهر في فاصلتي الآيتين في قوله تعالي:﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [1] كان مقتضي الظاهر أن تكون من الفاصلة مع الليل" أفلا تبصرون" ومع النهار" أفلا تسمعون" لكن ما عليه النظم الكريم أبلغ وأليق بالسياق، وهذا ما كشف عنه ابن أبي الإصبع بقوله(فإنه لما اسند جعل الليل سرمداً إلي يوم القيامة لنفسه، وهو القادر الذي جعل الشيء لا يقدر غيره علي مضادته قال في فاصلة الآية" أفلا تسمعون" لمناسبة السماع للظرف المظلم من جهة صلاحية الليل للسماع دون الإبصار لعدم نفوذ البصر في الظلمة، ولما أسند جعل النهار سرمداً إلي يوم القيامة لنفسه، كان الوجود كأن لم يخلق فيه ليل البتة، قال في فاصلة هذه الاية " أفلا تبصرون" لمناسبة ما بين النهار والإبصار)[2].

ويقول عنهما (لما كان - سبحانه- هو الجاعل الأشياء علي الحقيقة، وأضاف إلي نفسه جعل الليل سرمداً إلي يوم القيامة، صار الليل كأنه سرمداً بهذا التقدير، وظرف الليل ظرف مظلم لا ينفذ فيه البصر، لاسيما

---

(١) القصص"٧١-٧٢".

(٢) بديع القرآن ص١٤٧.

وقد أضاف الإتيان بالضياء الذي تنفذ فيه الأبصار إلي غيره، إذ نسب وجوده إلي غير موجد، والليل كأنه لاموجود سواه، إذ جعل كونه سرمداً منسوبا إليه سبحانه، فاقتضت البلاغة أن فيقول:﴿ أفلا تسمعون﴾ لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للإسماع ولا يصلح للإبصار ولذلك قال في الآية التي تليها(قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) لأنه لما أضاف جعل النهار سرمدا إليه صار النهار كأنه سرمد، وهو ظروف مضيء تنور فيه الأبصار، وأضاف الإتيان بالليل إلي غيره، وغيره ليس بفاعل علي الحقيقة فصار الليل كأنه معدوم، إذ نسب وجوده إلي غير موجد، والنهار كأنه لا موجود سواه، إذ جعل وجوده سرمداً منسوبا إليه، فاقتضت البلاغة أن يقول: " أفلا تبصرون " إذ جعل الظرف معني (صالحا)[1] للإبصار، وهذا من دقيق المناسبة المعنوية)[2]

وللمفسرين في بيان تغاير الفاصلتين وارتباط كل منهما بما وردتا فيه من الآيتين السابقتين كلام جليل لكنه لا يرقي إلي ما ذكره ابن أبي الإصبع، وكانوا فيه عالة علي الزمخشري في قوله(فإن قلت: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه كما قيل: بليل تسكنون فيه؟ قلت: ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثمة قرن بالضياء ﴿أفلا تسمعون﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن

(١) في أصل النص بالرفع والصواب ما أثبته.

(٢)تحرير التحبير ص٣٦٣ وما بعدها.

بالليل " أفلا تبصرون " لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونموه) [1].

فالزمخشري- ومن تابعه من المفسرين يري أن الفاصلتين جاءتا علي مقتضي الظاهر ولستا خلافاً له، علي نحو ما يفهم من كلامه فهو يري أن كل فاصلة مرتبطة بما جاورها، ففي الآية الأولي قيل " يأتيكم بضياء" ولهذا جاءت الفاصلة " أفلا تبصرون "، وهذا مغاير لما ذهب إليه ابن أبي الإصبع، بيد أن من المفسرين من ذهب مذهباً بعيداً في التأويل بتعارض مع ما يدل عليه السياق علي ما ينبيء عنه قول أبي بكر الرازى " فإن قيل : كيف قال تعالي في آخر آية الليل " بضياء أفلا تسمعون" وقال في آخر آية النهار " بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون"؟

قلت: السماع والابصار المذكوران لا تعلق لها بظلمة ولا بضياء النهار، فلذلك لم يقرن الإبصار بالضياء، وبيانه أن معني الآيتين أفلا يسمعون القرآن سماع تأمل وتدبر فيستدلوا بما فيه من الحجج علي توحيد الله تعالي، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة)[2].

فما ذكره الرازى وإن كان مما يحتمل قبوله فهو في نظرى بعيد يأباه السياق لأن الله تعالي في هاتين الآيتين الكريمتين يمتن علي عباده بنعمة تعاقب الليل والنهار، حيث لم يجعل كلا منهما سرمداً إلي يوم القيامة،

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٩ وانظر التفسير الكبير ٢٥/ ١٣ والبحر المحيط ٧/ ١٣٠ وفتح القدير ٤/ ١٨٥ وروح المعاني ٢٠/ ١٠٧.

(٢) مسائل الرازى وأجوبتها ص٢٦٤.

وأنه لو فعل ذلك بأن جعل الليل سرمداً فمنْ يستطيع أن يأتي الناس بنهار أفلا تسمعون، أو أن يجعل النهار سرمداً فمن يستطيع أن يأتيهم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون.

ولعل ما ذكره أبو جعفر بن الزبير يتفق في مضمونه مع كلام ابن أبي الإصبع مما يجعلني أقول في شيء من الحيطة بأن ابن الزبير نقل عن ابن أبي الإصبع، أو لعله من توارد الخواطر، يقول ابن جعفر(للسائل أن يسأل لم قدم الليل؟ ولم ختمت الأولي بقوله " أفلا تسمعون" والثانية بقوله " أفلا تبصرون" ؟.. والجواب عن الأول أن تقديم الليل علي النهار جار علي ما بنت العرب عليه حساب شهورها من تقديم الليل وجعل النهار تابعا له، ولم يرد في كتاب الله تعالي علي كثرة ترداده إلا ذلك.

والجواب عن السؤال الثاني : أن قوله تعالي في الآية الأولي: " أفلا تسمعون" مناسب للمدرك ليلاً من ضربي ما يعتبر به من المسموعات والمبصرات ، إذ الليل حائل دون المبصرات، وإنما تدرك فيه المسموعات لأن ظلمة الليل غير مانعة من أدراكها، فجيء بما يناسب، وجيء مع ذكر النهار بما يناسب أيضاً، فقيل: " أفلا تبصرون" لأن المبصرات تدرك نهاراً ولا تدرك ليلاً، فجيء مع كل ما يناسب والله أعلم)[1].

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٩١٠ وما بعدها وراجع درة التنزيل ٣٤٥ وما بعدها، وكشف المعاني ٢٨٦ وما بعدها، وبصائر ذوى التمييز ١/ ٣٥٧، والبرهان في توجيه متشابه القرآن ١٤٦ وما بعدها.

الموضع الخامس:

ونظير الفاصلتين السابقتين قوله تعالي (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، أو لم يروا أنا نسوق الماء إلي الأرض الجزر فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون)[1] ففي آية الإخبار عن هلاك الأمم السابقة جاءت الفاصلة " أفلا يسمعون" وفي آية إنزال الماء وإنبات الزرع به ختمت الآية بقوله " أفلا يبصرون " فما السر في ذلك ؟ أجاب عن ذلك ابن أبي الإصبع بقوله (فانظر إلي قوله تعالي في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية لكونهم لم ينظروا القرون الهالكة، وإنما سمعوا بها "أو لم يهد لهم" لم يقل كما قال في التي بعدها:" أو لم يروا" وقال بعد الموعظة المرئية " أفلا يبصرون" لأن الزرع مرئي لا مسموع ليناسب آخر كل كلام أوله)[2] فهو يري أن الآية الأولي جاءت فاصلتها " أفلا يسمعون" لأن الموعظة فيها سمعية لا مرئية، لأن إهلاك الله للأمم السابقة التي كذبت الرسل أمر مسموع قصه الله علينا في بعض سوره الكريمة، ولهذا افتتحت الآية الأولي بقوله" أو لم يهد لهم" أما الآية الثانية فجاءت فاصلتها أفلا يبصرون" لأن الموعظة فيها مرئية لأن الزرع مرئي لا مسموع، لأن إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها بإخراج الزرع أمر مشاهد، ولهذا جاءت الموعظة في هذه الآية مرتبطة بالإبصار لأن دلالة إحياء

---

(١) السجدة" ٢٦/ ٢٧".

(٢) بديع القرآن ص١٤٨ وأنظر تحرير التحبير ص٣٦٤ وما بعدها.

الأرض بعد موتها دلالة مشاهدة لا مسموعة.

وذكر أبو حيان كلاما نفسيا أظنة اعتمد فيه علي ابن أبى الإصبع ونقله عنه حيث يقول: (وجاءت الفاصلة" أفلا يبصرون" لأن ما سبق مرئي، وفي الآية قبله مسموع فناسب" أفلا يسمعون")[1] ، ونقل الشهاب كلام أبى حيان،وأضاف إليه توجيهاً آخر بقوله" وجعلت الفاصلة هنا " يبصرون" لأن الزرع مرئي، وفيما قبله" يسمعون" لأن ما قبله مسموع، أو ترقياً إلي الأعلى في الانعاظ مبالغة في التذكير ودفع العذر) [2].

الموضع السادس:

يقول ابن أبي الإصبع في ترتيب الآيتين الكريمتين من سورة آل عمران(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوهكم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنت تكفرون، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) [3]وقوله تعالي في سورة هود فمنهم شقي وسعيد، فأما الذين شقوا ففي النار...، وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها...) [4]" (الآية الأولي روعي فيها حسن الجوار، فقدم علي الترتيب، والآية الثانية روعي فيها الترتيب)[5].

---

(١). البحر المحيط ٧/ ٢٠٥ وما بعدها وأنظر التفسير الكبير ٢٥/ ١٨٨ وراجع البرهان في توجيه متشابه القرآن ص١٥٥.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٥٦ وانظر روح المعاني ٢١/ ١٤٠.

(٣) آل عمران"١٠٦/ ١٠٧".

(٤) هود"١٠٥/ ١٠٨".

(٥) بديع القرآن ص١٥٤، ولم أجد لعلماء المتشابه كلاماً حولهما.

فإين أبي الإصبع يوازن بين هاتين الآيتين من جهة الترتيب، فيري أن الآية الأولي ابتديء في تفصيل بياض الوجوه وسواد الوجوه بذكر صفات أصحاب الوجوه السود لحسن مجاورته لقوله " تسود وجوه" ولهذا قدم علي الترتيب لحسن الجوار، أما الآية الثانية فقد روعي في التفصيل فيها الترتيب فبدىء فيها ببيان جزاء الذين شقوا ثم جزاء الذي سعدوا مراعاة للأصل لأن الآية الكريمة بدأت بالشقي ثم بالسعيد في قوله تعالي (ومنهم شقي وسعيد).

يقول أبو حيان في سر ترتيب الآية الأولي (هذا تفصيل لأحكام من تبيض وجوههم وتسود وجوههم، وابتدىء بالذين أسودت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم، ولمجاورته قوله" وتسود وجوه، وللابتداء بالمؤمنين والاختتام بحكمهم، فيكون مطلع الكلام ومقطعه شيئا يسر الطبع ويشرح الصدر) [1]ويقول الطاهر بن عاشور(ثم قدم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلاً بمساء تهم)[2].

الموضوع السابع:

يبين ابن أبي الإصبع ،سر اختلاف الصياغة بالفعل و الاسم في قوله تعالى ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [3]قائلا (فإن لقائل أن يقول : ما النكتة التي رجحت

(١) البحر المحيط٣/ ٢٢وراجع التفسير الكبير ٨/ ١٨٧ وما بعدها.
(٢) التحرير والتنوير٤/ ٤٥.
(٣) الأنفال"٣٣".

اختلاف الصيغتين , من الفعل والاسم على اتفاقهما مع اتفاق زمانهما , فإن مدى مقام الرسولﷺفي المخاطبين منقسمة على الحال والاستقبال , وكذلك مدة الاستغفار ,وهل يجوز مجئ كل واحدة من الصيغتين في مجاز الأخرى أم لا يجوز إلا ما جاء به الرسل ؟ أو هل يجوز الاقتصار على الفعل الدال على الزمانيين دون اسم الفاعل أم لا ؟

والجواب أن معرفة النكتة التي رجحت ,مجئ الكلام على ما جاء عليه بحيث لا يجوز غيره , أن المخاطبين بها هم المنافقون الذين لم يؤذن النبي ﷺ في إمهالهم مدة مقامة فيهم , لا من قبل نزول الآية ولا من بعدها , والخبر الصادق يجب أن يكون طبق المخبر . ولما كان الرابع الذي أمر الخبر به نفي تعذيبهم في الماضي و الحال دون الاستقبال، فإن الخبر الصادق قد أخبر بعذابهم في الاستقبال حيث قال " ومالهم ألا يعذبهم الله " اقتضت البلاغة مجئ الفعل المضارع الدال مع الإطلاق على الزمانيين مع القرينة على أحدهما بحسب ما يدل عليه،واقترن به قوله تعالى " وأنت فيهم " فأفاد دلالته على الحال دون الاستقبال، ونفى حصول العلم بنفي تعذيبهم فيما مضى من الزمان قبل نزول الآية ، فأتى سبحانه بصيغة اسم الفاعل المضاف ليدل على الماضي ،اقتضى حسن الترتيب أن يقدم صيغة الفعل لدلالتها على الحال الذي هو مدة مقام الرسول ﷺ لأن نفى العذاب فيما هو الأهم)[1].

---

(١) بديع القرآن٢١٥ وما بعدها.

لعل مجمل ما قاله ابـن أبي الإصبع يعد مقبولا , وإن كان في الـنص لبس وغـموض بسبب التـحريف والتصـحيف , كقـوله : والخبر الـصادق يجب أن يكون طبق المخبر , وهذه الجملة كما ترى مقحمة على هذا النص لا صلة لها بسياق الكلام , وكقوله : ولما كان ،الرابع الذي أمر الخبر به نفي تعذيبهم , فليس في النص ترتيب عددي يقتضي بعده ذكر الرابع , ولهذا اعتقد أن في هذه الـعبارة تصحيفا لعل صوابه : ولمـا كان الراجح الذي أمر الخبر به نفي تعذيبهم .....

ويفـهم من كلام ابـن أبي الإصبع ،أن الـفرق في اختـلاف الصيغـتين بالفـعل والاسم في قوله " لـيعذبهم " و" معـذبهم " لأن المخاطبين بـها هم المنافقون الذين لم يؤذن النبي ﷺ إمهالـهم مدة مقامه فيهم لا من قبل نزول الآية ولا من بعدها ، واقتـضت البلاغة التعبير بالفعل المـضارع " ليعذبهم" الدال بإدلاقه على الزمانيين الحال والاستقبال مع القرينة التي ترجح دلالته على أحدهما، ولهذا جاء هنا دالا علـى الحال لاقترانه بقوله " وأنت فيهم " فأفاد دلالته علـى الحال دون الاستقبال , ولما قصد نفي حصول العلم بنفي تعذيـبهم فيمـا مضى من الـزمان قبل نزول الآيـة جاء التعبـير بصيـغة اسم الفاعل لدلالتها على الحال الذي هو مدة مقام الرسول ﷺ لأن نفي العذاب هو الأهم .

ولم أعثر في كتب المـتشابه القرآني , وكتب التفسيـر على شيء يذكر في إيضاح الفرق بين اختلاف الصيغتين من الفعل والاسم في الآية الكريمة السابقة , غير أنه يمكننا القول اعتمادا على ما هو مقرر لدى علماء البلاغة

في الفرق بين دلالة الفعل على التجدد والحدوث , ودلالة الاسم على الثبوت والدوام حيث جاء التعبير أولاً بالفعل " وما كان ليعذبهم " لنفي تجدد العذاب عنهم والرسولﷺ بين ظهرانيهم تعظيما له عليه الصلاة والسلام،وامتنانا من الله عليهم , ولما كان استغفارهم يتجدد منهم حالا فحالا عبر الحق سبحانه و تعالى بصفة الاسم " وما كان الله معذبهم " للدلالة على أن نفي العذاب عنهم ثابت ومستمر . فاقتضت البلاغة بسب ما تقدم التعبير أولا بالفعل المضارع " ليعذبهم " وثانيًا : التعبير بصيغة " معذبهم " والله تعالى أعلم .

ولا يخلو كلام المفسرين ـ لمن وقف علية ـ من لطيفة يجدر ذكرها وإن لم تكن متجهة إلى إدراك الفرق بين اختلاف التعبير بصيغة الفعل وصيغة الاسم لكنها متجهة إلى إبراز الفرق بين قوله في مطلع الآية " وما كان ليعذبهم وأنت فيهم " واقتصار آخرها على استغفارهم دون كونه فيهم ، وفي هذا الصدد يقول أبو حيان (انظر إلى حسن مساق هاتين الجملتين ، لما كانت كينونته فيهم سببا لانتفاء تعذيبهم ، ،أكد خبر كان باللام ....، ولما كان استغفارهم دون تلك الكينونة الشريفة لم يؤكد باللام بل جاء خبر كان قوله " ومعذبهم " فشتان " ما بين استغفارهم وكينونته ﷺ[1].

(١) البحر المحيط ٤/ ٤٩ وما بعدها وانظر التفسير الكبير ١٥/ ١٦٢ وحاشية الشهاب ٤/ ٢٧٢ وروح المعاني ٩/ ٢١٠ وحاشية محي الدين زاده ٢/ ٣٠٦.

الموضع الثامن:

أوضح ابن أبي الإصبع في هذا الموضوع ،الفرق بين اختلاف التعبير في وصف كل من المنافقين و المنافقات , والمؤمنين و المؤمنات في الآيتين الكريمتين في قوله تعالى :﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف و يقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم﴾[1] وقوله تعالى :﴿ والمؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[1].

يقول المؤلف (فإن لقائل أن يقول : ما النكتة التي أوجبت وصف المنافقين و المنافقات بالتلاحم الشديد " دون المؤمنين والمؤمنات , بحيث لا يجوز التبديل في الخبرين , فيجعل التلاحم بين المؤمنين , وغيره بين المنافقين ؟ فيقال : لما كان المنافقون والمنافقات كلهم يهود , وهم من بني إسرائيل كان اتصال بعضهم ببعض اتصال نسب, ولما كان المؤمنون من شعوب متفرقة , وأمم شتى كان اتصالهم اتصال سبب , وهو جعل الإسلام بينهم من التحاب في الله والولاء فيه والتناصر في سبيله , ومن هاهنا لم يجز التبديل بين الخبرين , بأن يجعل ،اتصال النسب للمؤمنين واتصال السبب للمنافقين .)[3].

وللمفسرين كلام نفيس نقتصر فيه على ما ذكره أبو حيان في هذا الصدد بقوله (لما ذكر المنافقين و المنافقات وما هم عليه من الأوصاف القبيحة والأعمال الفاسدة ذكر المؤمنين و المؤمنات ,وقال في أولئك "

---

(١) التوبة"٦٧".
(٢) التوبة"٧١".
(٣) بديع القرآن ص٢١٧.

بعضهم من بعض " وفي هؤلاء " بعضهم أولياء بعض " قال ابن عطية : إذ لا ولاية بين المنافقين ولا شفاعة لهم , ولا يدعو بعضهم لبعض فكان المراد هنا الولاية في الله خاصة , وقال أبو عبد الله الرازى " بعضهم من بعض " يدل على أن نفاق الاتباع ,وكفرهم حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر , وبسبب مقتضى الهوى و الطبيعة والعادة , أما الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فإنما حصلت لا بسبب الميل والعادة بل بسبب المشاركة في الاستدلال والهداية و الولاية ضد العداوة , ولما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض ذكر بعده ما يجرى كالتفسير و الشرح له وهى الخمسة التي يتميز بها المؤمن على المنافق , فالمنافق يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ولا يقوم إلى الصلاة إلا وهو كسلان ويبخل بالزكاة ويتخلف بنفسه عن الجهاد , وإذا أمره الله تثبط وثبط غيره ، والمؤمن بضد ذلك كله من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد , وهو المراد في هذه الآية بقوله " ويطيعون الله ورسوله " انتهي)(١).

واضح من الكلام السابق أن القرآن الكريم عبر في وصف المنافقين والمنافقات بقوله " بعضهم من بعض " بسبب أن النفاق والكفر الذي يربط بينهم بسبب تقليدهم لكبرائهم وبسبب الهوى والعادة , وعبر في وصف المؤمنين و المؤمنات بقوله "بعضهم أولياء بعض " بسبب ما بينهم من

(١) .البحر المحيط ٥/ ٧٠ وانظر الكشاف ٢/ ٢٠٠ والتفسير الكبير ١٦/ ١٢٤ وتفسير البيضاوى بهامش حاشية الشهاب ٤/ ٢٤٢ وروح المعاني ١٠/ ١٣٢ ، ١٣٥ والتحرير والتنوير ١٠/ ٢٠٢.

المشاركة في الاستدلال و الهداية والولاء لله .

وذكر العلامة بدر الدين بن جماعة كلاماً لا يختلف في مجمله عن كلام المفسرين , وإن بدا في ظاهره أنه على النقيض مما ذكره ابن أبى الإصبع بقوله ،(جوابه " أن المنافقين ليسوا بمتناصرين على دين معين وشريعة ظاهرة ،فكان بعضهم يهود , وبعضهم مشركين، فقال : " من بعض " أي في الكفر والنفاق , والمؤمنون متناصرون على دين الإسلام وشريعته الظاهرة فقال " أولياء بعض " في النصرة وفي اجتماع القلوب على دينهم فلذلك قال " إنما المؤمنون إخوة " وقال في المنافقين " وقلوبهم شتى)[1].

ما من شك في أن التعبير القرآني يحتمل كل هذه التوجيهات، وبالنظر في كلام ابن أبي الإصبع وابن جماعة نجد أن ما ذكره ابن أبي الإصبع يشير إلى أن السبب في أن قيل في جانب المنافقين " بعضهم من بعض " لكونهم من اليهود ،العلاقة التي تربط المنافقين علاقة نسب لأن أكثر المنافقين كانوا يهودا , وقيل في جانب المؤمنين " بعضهم أولياء بعض " لأنهم كانوا من أمم شتى وشعوب مختلفة فالعلاقة بينهم علاقة اتصال سبب لما كان بينهم من التحاب في الله والولاء والتناصر في سبيله .

أما كلام ابن جماعة فنجده يشير إلى أن السبب في مجئ التعبير القرآني في وصف المنافقين " بعضهم من بعض " لأنهم ليسوا بمتناصرين

---

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ص ١٩٩.

على دين وشريعة واحدة , فكان بعضهم من اليهود , وبعضهم الآخر من المشركين،وفي وصف المؤمنين ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ لأنهم كانوا متناصرين على دين الإسلام وشريعته الظاهرة وفي النصرة في اجتماع القبول على دينهم، ولذلك قيل في شأن المؤمنين " إنما المؤمنين أخوة " وفي شأن المنافقين " وقلوبهم شتى .....

ولعل ما ذكره أبو بكر الرازى ،يقترب مما نقلناه عن العلماء وإن كان في كلامه زيادة تفصيل ليست في كلامهم , وقد وضح لي وضوحا لا يدع مجالا للشك في أن آخر كلامه مستمد من الزمخشري [1] وإليك كلامه (فإن قيل : كيف قال الله تعالى " المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض" وقال بعده " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض " وكلمة " من " أول على المشابهة والمجانسة من حيث أنها تقتضي الجزئية والبعضية , فكانت بالمؤمنين أولى وأحرى لأنهم أشد لأنهم تشابها وتجانسا في الصفات والأخلاق ؟

قلنا: إن المراد ،بقوله تعالى " بعضهم من بعض " أي بعضهم على دين بعضهم أي على عادتهم وخلقهم بإضمار لفظة " الدين " أو " الخلق " ونحوه , لأن " من " تأتي بمعنى " على " ومنه قوله تعالى (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا)وقوله تعالى (للذين يؤلون من نسائهم) أي

---

(١) يقول الزمخشري "بعضهم من بعض" أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: يحلفون بالله إنهم لمنكم" وتقرير قوله- ومامهم منكم:- الكشاف ٢/ ٢٠٠.

يحفلون على وطء نسائهم ..... والمراد بقوله تعالى " بعضهم أولياء بعض " أي أنصارهم وأعوانهم في الدين , وكل واحدة من العبارتين صالحة للفريقين , إلا أنه خص المنافقين بتلك العبارة تكذيبا في حلفهم السابق في قوله تعالى " ويحلفون بالله إنهم لمنكم " وتقريرا لقوله تعالى: ﴿وما هم منكم﴾[1].

فالرازي كما ترى بعد أن بين السبب في وصف المنافقين بقوله " بعضهم من بعض " أي على عادتهم وخلقهم , بإضمار كلمة الدين أو الخلق " وباعتبار جعل " من " بمعنى " على " وفي جانب المؤمنين وصفهم بقوله " بعضهم أولياء على بعض" باعتبار أنهم أنصار وأعوان لبعضهم البعض في الدين , نراه يصرح بأن كلا العبارتين ,صالحة للفريقين , موضحا السبب في اختصاص المنافقين بما صرحت به الآيات هو تكذيبهم في حلفهم السابق في قوله تعالى (ويحلفون بالله إنهم لمنكم) وتقرير لقوله تعالى (وما هم منكم) .

والرازى يفصح بأن الحق لما قرر بأنهم ليسوا منكم فلذلك وصفهم بقوله (بعضهم من بعض) وردًا على أيمانهم الكاذبة في قوله (يحلفون بالله إنهم لمنكم) .

الموضع التاسع:

يبين فيه ابن أبي الإصبع السبب في اختلاف الصياغة بالفعل " يخرج

---

(١) مسائل الرازى وأجوبتها ص١١٩.

الميت من الحي وبالاسم " ومخرج الميت من الحي[1] في قوله (ومن إيضاح الكتاب العزيز قوله تعالى ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي﴾[2] الآية ، فإن الإشكال فيها مجئ هذا الحرف منها على خلاف ما جاء عليه أمثاله وهو قوله تعالى﴿ ومخرج الميت من الحي﴾ باسم الفاعل،ولم يأت كما آتى في آل عمران (وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي)[3] ولا كما جاء في آية يونس ، فإنه جاء فيها أيضا بصيغة الفعل كما جاء في آل عمران،وكما جاء في الروم ، وعلى الجملة لم يأت في القرآن كله (ومخرج الميت من الحي) إلا في هذا الموضع من الأنعام , فلقائل أن يقول : ما النكتة التي أوجبت مجئ هذا المكان على ما جاء عليه مخالفا لأمثاله ؟ والجواب الذي يتضح به هذا الإشكال أن يقال : إنما جاء كذلك توخيا لحسن الجوار في النظم ليجاور كل لفظ ما يلائمه في مناسبة الزنة ،لتتعادل ألفاظ النظم عند التركيب، ولو أتى هذا الحرف في الأنعام كما جاء أمثاله في آل عمران، ويونس، والروم لخرج نظم آية الأنعام عن الاعتدال لمجيء صيغة الفعل حيث يقول" ويخرج الميت من الحي" متوسطاً بين أسماء الفاعلين من قوله﴿ فالق الحب والنوى﴾ وقوله﴿ فالق الإصباح وجاعل الليل ساكناً﴾[3] كما أنه لو جاء

---

(١) . الأنعام"٩٥".

(٢) آل عمران"٢٧".

(٣) . الأنعام"٦٩".

(٤) آل عمران"٢٦-٢٧".

مكان (ويخرج الميت من الحي) في آل عمران(ومخرج الميت) لتنافرت الألفاظ، وعيب نظم الكلام لسوء الجوار، لمجيء اسم الفاعل بين صيغة الأفعال من قوله تعالي(تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك علي كل شيء قدير. تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب)[1] وكذا آيتا يونس والروم مركبة كلتاهما من صيغ الأفعال، فمجيء اسم الفاعل في آية الأنعام ملائم لما جاورها من أسماء الفاعلين، وبقية الآيات صيغة الفعل فيها ملائمة لما جاورها من صيغ الأفعال فإنه سبحانه وتعالي قال في آية يونس﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض ام من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾[2] وكذلك جاءت آية الروم، فإنه سبحانه وتعالي قال فيها:﴿ وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾[3]. فإن البليغ إذا نظم كلاماً وجب عليه أن يلائم بين ألفاظه، ليأتي كلامه موصوفاً بالائتلاف بحيث لا تأتي لفظة منافرة لأخواتها، موضوعة في غير موضعها، فإن الكلام إذا وقع فيه مثل ذلك عيب بسوء الجوار، ولما أوجبت

---

(١). يونس"٣١".

(٢) الروم"١٨-١٩".

(٣) الروم"٧٢".

البلاغـة أن يأتي خبـر" إن "في سورة الأنعام بـصيغة اسـم الفاعل فـي قوله تعالي :(إن الله فالق الحب " يكون اسـم الفاعل المضاف يدل علي المضي، والفـعل المضارع يـدل علي الحال والاسـتقبال دون المـضي، والآية سبـقت للتمدح بالقدرة المـطلقة التي هي صفة ذاتية لله سبحـانه ، والاعتداد بالنعم علي عباده، فكان التمدح بها مع الإتيان بصيغة اسم الفاعل ابلغ من الإتيان بصيغة الفعل، لما يدل عليه الفـاعل من المضي المطلق الدال علي العدم فإن المجيء ذلك علي ما جاء عليه يستفاد منه قدم القدرة، ويلزم من قدمها قدم الموصـوف بها، ولما عـلم ـ سبحانـه وتعالى- أن تمدحه بمجـرد فلق الحب والنوى في بطن الأرض غير تام لأنه لا ينتفـع به حتى يخرج نباته إلي ظهر الأرض، فحينئذ يكون نعمة يعـتد بها علي العبـد لانتفاعهم بها، ولـيظهر لأعينهم فـيشاهدون به قدرة مخرجه ومـخترعه، أخبر بأنه يخـرج نباتاً من الأرض ليـتم معـني التـمدح ووجب أن يـكون الخبر عنـه بصيـغة الفـعل المضارع ليقـع الإخبار به علي ترتيـب وقوعه في الوجود، لا يتقـدم منه ما يجب تـأخيره، ولا يتأخـر ما يجب تقديمـه، إذ كان فالق الحب والـنوى في بطـن الأرض مقـدماً علـي خروج الـنبـات إلي ظهـر الأرض، فكـان زمن الانفلاق الحـب والنوى ماضيـاً بالنسبـة إلي زمن خروج النـبات، وخروج النـبات مـستـقبـلا بالـنسبـة إليـه استـقبـالاً أوله زمـن الحال، وآخـره زمن الاستقبال، فكان مـقتضي البلاغة الإتيان بصيغـة المضارع الدال علي الحال والاستقبـال بعد اسم الفاعل الدال عـلي المضي.....،ليرتبط بـعض الكلام

ببعض، وليتم المعني المراد من التمدح بهذه الأفعال والاعتداد بهذه النعم علي الحيوان، فكان مقضي البلاغة أيضاً تقديم ذكر الحب علي النوى لكونه قوت المخاطب المعتد عليه بهذه النعم، وقوت دوابه، ووجب أن يقتصر علي ذكر الحب دون النوى لأن في ذكر النوى إشارة إلي ما يعتد به علي المخاطب أيضاً من الثمرات التي يتفكه بها، وتتنوع له الملاذ بسببها، فكان ذكرها من كمال معني التمدح، ثم لما علم سبحانه أن القدرة المطلقة إذا وصفت بإيجاد النبات والتصرف في الجماد دون إيجاد الحيوان، كان الوصف ناقصاً فاستأنف الإخبار عنه بإخراج الميت من الحي لأن المعني الأول قد تم الكلام فيه، وحسن السكون عليه، فقطعه وأفاد ما أفاد مما أبديناه أنفاً، فقال بعد ذلك متنقلاً من الإخبار عن إخراج النبات من الجماد إلي الإخبار عن إخراج الحيوان من الحيوان لتمام المعني الذي كان بدون ذلك ناقصاً، وصار قوله" ومخرج الميت من الحي" مكملاً، وأتي في هذه الجملة باسم الفاعل لأنه خبر مبتدأ مستأنف تقديره وهو مخرج الميت من الحي، ليأتي نظم الجملة الثانية علي ما أتي عليه نظم الجملة الأولي، حيث قال عزوجل ﴿ إن الله فالق الحب والنوى﴾ جاء خبر إن إسماً، فكذلك أوجبت البلاغة أن يأتي خبر المبتدأ في الجملة الثانية (اسماً) واقتصر سبحانه علي التمدح بإخراج الميت من الحي ، واكتفي بذلك دون إخراج الحي من الميت، لكون إخراج الميت من الحي أعسر من إخراج الحي من الميت في معترف عاداتنا، ومدارك عقولنا، لأن الحي ربما أعان علي خروجه

بحركـتهن وربما ركب الـله في طبيـعته من طـلب الخروج من الضـيق إلي السـعـة عند صلاح قوتـه للخروج، ومن يـقدر علي إخراج الأصـعب كان علي إخـراج الأسهل أقدر، كـما قال سبـحانه في المـعاد (وهو الذي يـبدأ الخلق ثم يعيـده وهو أهون عليه)[1] وإذا علمت ذلك تحقـقت الحكمة في مجيء آية الأنعام مخالفة لبقية أمثالها من الآيات، فيتضح الإشكال ويندفع السؤال والله أعلم)[2].

وبمراجعـة ما كتبة المفـسرون نجده يتجـه إلي إيضاح السر فـي اختلاف الصياغة بـالفعل والاسم في آية الإنعـام دون الموازنة بينها وبين غـيرها من الآيات التي جاء فـيها التعبير بـالفعل دون اسم الفاعل ، وفـي هذا الصدد يقول الزمخشرى (فإن قلت كيف قـال" مخرج الميت من الحي" بلفظ اسم الفـاعل بعـد قولـه" يخرج الحـي من الميـت" موقعـه موقع الجـملـة المبيـنة لقوله(فالق الحب والنوى) لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت لأن النـامي في حكم الحيوان، ألا تري إلي قوله تعـالي- يحيي الأرض بعـد موتها)[3] ، وبعـد أن نقل الـرازى كلام الزمخشري أضاف قائلاً(وفيه وجه آخـر، وهو أن لفظ الفعل يدل علي أن ذلك الفاعل يعـتني بذلك الفعل في كل حين وأوان، وأمـا لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعـتناء به ساعة فساعة، وضرب الشيخ عـبد القاهر لهذا

---

(١) الروم ٧٢.

(٢) بديع القرآن ٢٦٥-٢٧٠ وانظر تحرير التحبير ٥٦١/ ٥٦٢.

(٣) الكشـاف ٢/ ٣٧ وانظر البحـر المحيط ٤/ ١٨٤ وما بعـدها، والبيـضاوى، وحاشية الـشهاب ٤/ ١٠٠ وروح المعاني ٧/ ٢٢٦ وما بعدها والتحرير والتنوير ٧/ ٣٨٨ وما بعدها.

مثلاً في كتاب دلائل الإعجاز فقال قولـه(هل من خالق غير الله يرزقكم) إنما ذكره بلفظ الفعل وهو قوله" يرزقكـم" لأن صيغة الفعل تفيد أنه تعالي يرزقهم حالاً فحالاً وسـاعة فساعة، أما الاسم فمثاله قوله تـعالي(وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) فقوله" باسط" يفيد البقاء علي تلك الحالة الواحدة.

إذا ثبت هـذا فنقول: الحـي أشرف من الميت فـوجب الاعتنـاء بإخراج الحي مـن الميت أكثـر من الاعتـناء بإخـراج الميت من الحـي ، فلهـذا وقع التعبـير عن القسم الأول بـصيغة الفعـل وعن الثاني بصـيغة الاسم، تنبـيهاً علي الاعتناء بإيجاد الحي من الميت اكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي والله أعلم بمراده)[1]

ولعلماء المتشـابه القرآني كلام طيب يعد مقبـولاً وإن لم يرق إلي ما ذكره ابن أبي الإصـبع لاقتصـارهم فيه عـلي مراعاة التناسب اللفظي كـما هو واضح في قـول أبي جعفر الـغرناطي.قولـه تعالي﴿تولـج الليل في الـنهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتـخرج الميت من الحي﴾ وكذا في سورة يـونس﴿أمن يملك الـسمع والأبصار ومن يخـرج الحي من الميـت ويخـرج الميـت من الحي ﴾وكـذا في سـورة الروم، وورد فـي سورة الأنعام ﴿إن الله فـالق الحب والنوى يخرج الحي من الميـت ومخرج الميت من الحـي﴾ فوقع هنـا اسم الفاعـل موقع الـفعل وعاقـبه فقال " ومـخرج" فيـسأل عن هذا؟!

---

(١) .التفسير الكبير ١٣/ ٦٨.

ووجه ذلك، والله أعلم أن بناء آية الأنعام علي آية بنيت علي اسم الفاعل وإن كان خبراً وهو قوله تعالي ﴿ إن الله فالق الحب والنوى﴾ ثم أعقب ذلك بقوله " فالق الإصباح وجعل الليل سكناً" فلما اكتنف الآية أسماء فاعلين جيء فيها باسم الفاعل في قوله" ومخرج الميت من الحي" ليناسب ذلك، فعطف" مخرج علي"فالق" إذ هو معطوف علي ما عطف عليه" فالق الإصباح" فتناسب هذا، ولم يقع الآخر المتضمنة إخراج الحي من الميت والميت من الحي مثل هذا، فلذلك لم يعدل إلي اسم الفاعل، والله سبحانه أعلم)[1].

وبتأمل كلام علماء المتشابه وكلام ابن أبي الإصبع نرى اتفاق نظرتهم في بيان السبب في مجيء آية الأنعام باسم الفاعل والآيات الآخر بصيغة الفعل هو أن القرآن الكريم راعي التناسب اللفظي وحسن المجاور كما نقلناه سابقاً ونحن في غني عن إعادته، إلا أن كلام ابن أبي الإصبع أبعد غوراً وأكثر تفصيلا وأحسن توفيقاً لملاحظته للتناسب اللفظي والمعنوي معاً.

ومع أن اجتهاد العلماء في تلمس السر في اختلاف الصياغة في الآيات المتشابهات، واقتصارهم في بعضها علي مراعاة الجانب اللفظي-وهو بطبيعة الحال جهد يستحقون الثناء عليه، ولا يمكن بحال من الأحوال التقليل من شانه- يعد مقبولاً ومقنعاً لعامة الناس إلا أنه من الخطأ

(١) ملاك التأويل ٢٩٤ وما بعدها وأنظر درة التنزيل ١٢٤ وما بعدها وكشف المعاني ١٦٣، وبصائر ذوى التمييز١/ ١٩٤ وما بعدها والبرهان في توجيه متشابه القرآن ٦٤ وما بعدها.

البين أن يـزعم زاعم أن القـرآن حين يعمد إلـي تغييـر الصياغـة في الآيات المتـشابهـات بالـتقديم أو الـتأخيـر أو بالزيـادة أو بالحـذف لمراعاة الجـانب اللفظي أو لـلمحافظة علي الـوزن لبعده عن الحق ومجافـاته للصواب لأن القرآن الكريم مـع مراعاته للمناسبـة اللفظية والمحافظة عـلي الوزن يراعي الجانب المعنوي ليحقق أهدافه البلاغية.

الموضع العاشر:

يكشف فيه عن سـر اختلاف التعبير القرآني في قوله تـعالي حكاية عن زكريا عليه الـسلام(قال رب أني يكون لي ولد وقد بلغنـي الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء)[1] وقوله تعالي في قصة مريم -عليها السلام -﴿قالت رب أني يـكون لي ولد ولم يمسسني بشـر قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾[2].

يقول ابن أبي الإصبع (فلقائل أن يقول: لم يقال في حق زكريا "يفعل" وقـال في قـصـة مريم" يـخلـق" والمـعنـي واحـد، فإنـه بشـارة بـولد فـي الموضوعـين؟ والانفصال عن ذلـك أن استبعاد زكريـا لذلك استبـعاد لأمر غير خارق للـعادة، وإنما وقوع مثله نادر بعـيد، فحسن أن يعبر عنـه بلفظه" يفـعل" لأن صيـغة الفـعل يخـبر بهـا عمـن تكرر مـنه مثـل ذلك الفـعل ، واستبـعاد مريم- عليـها السلام- استـبعاد أمر لا يقـع مثله إلا خارقـاً غير معتاد، فكـان الإخبار عنه سبحانه بـوقوعه بلفظة الخلـق أنسب، لأن الخلق في اللـغة هو التـقدير، والتـقدير مقـدم علي التـصوير، وهو فـي اصطلاح

---

(١) آل عمران"٤٠".

(٢) آل عمران"٤٧".

الشرع الاختراع وفعل ما لا يقع مثله أولي بالاختراع، فناسب الإخبار عنه بلفظة الخلق)[1].

ولم أعثر فيما وقفت عليه من كتب المتشابه القرآني علي شيء يتصل بهاتين الآيتين في هذا الخصوص لعدم حديثهم عنهما، بيد أن للمفسرين كلاماً وجيها كان رائدهم فيه الزمخشري، وكان كلامه بمثابة الانطلاقة الأولي التي أضافوا إليها إضافات يحسن ذكرها في هذا الموضع، يقول الزمخشري(" أني يكون لي غلام" استبعاد من حيث العادة، كما قالت مريم،.....، "كذلك" أي يفعل الله ما يشاء من الأفاعيل العجيبة مثل ذلك الفعل وهو خلق الولد الشيخ الفاني والعجوز العاقر الخارقة للعادات)[2]

ونقل الرازى ما ذكره المفسرون قبله بقوله(قال المفسرون: إنها إنما قالت ذلك لأن التبشير به يقتضي التعجب مما وقع علي خلاف العادة، وقد قررنا مثله في قصة زكريا عليه السلام)[3]

ويضيف أبو حيان ما ذكره الزمخشري بقوله" إشارة إلي الفعل أي مثل ذلك الفعل وهو تكون الولد بين الفاني والعاقر" يفعل الله ما يشاء" من الأفعال الغريبة فيكون إخباراً من الله أنه يفعل الأشياء التي تتعلق بها

---

(١) بديع القرآن ٣٣٦ وما بعدها.

(٢) الكشاف١/ ٤٢٨ وراجع التفسير الكبير ٨/ ٤١،٥٩، وتفسير البيضاوى بهامش حاشية الشهاب ٣/ ٢٦ وتفسير أبي السعود ١/ ٤٧٧،٤٨٣، وروح المعاني ٣/ ١٦٤ والتحرير والتنوير ٣/ ٢٤٢،٢٤٩.

(٣). التفسير الكبير ٨/ ٥٩.

مشيئته فعلاً مثل ذلك الفعل لا عجزه شيء بل سبب إيجاده هو تعلق الإرادة سواء كان ذلك من الأفعال الجارية من العدم الصرف بلا مادة ولا سبب، فكيف بالأشياء التي لها مادة وسبب، وإن كان ذلك علي خلاف العادة) [1] ويقول في موضع أخر (تقدم الكلام في نظيرها في قصة زكريا، إلا أن قصته " يفعل ما يشاء" من حيث أن أمر زكريا داخل في الإمكان العادي الذي يتعارف وإن قل وفي قصة مريم" يخلق" لأنه لا يتعارض مثله، وهو وجود ولد من غير وا اختراع من غير سبب عادى، فلذلك جاء بلفظ يخلق الدال علي هذا المعني)[2]

ونقل العلامة سليمان العجيلي الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤هـ عن أبي عبد الله محمد الكرخي[3] المتوفى سنة ١٠٠٦هـ كلاماً يتفق في كثير من لفظه ومضمونه مع ما ذكره ابن أبي الإصبع بقوله(وعبارة الكرخي قوله " الله يفعل ما يشاء" جملة مبينة مقررة في النفس وقوع هذا الأمر المستغرب كما أشار إليه في التقرير، وقال في حق زكريا" يفعل" وفي حق مريم" يخلق" مع اشتراكهما في بشارتهما بولد لأن استبعاد زكريا لم يكن لأمر خارق بل نادر بعيد، فحسن التعبير بيفعل، واستبعاد مريم كان لأمر خارق أي لأغربيته لأنه اختراع بلا مادة أي من غير إحالة علي سبب ظاهر فكان ذكر الخلق أنسب)[4].

---

(١) . البحر المحيط ٢/ ٤٥٠ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٦٢.

(٣). انظر ترجمته في معجم المؤلفين ١١/ ٢٦١.

(٤) الفتوحات الإلهية ١/ ٢٦٨.

ومع عدم جزمي بأن ابن أبي الإصبع قد نقل عن المفسرين وإن كان من المحتمل جداً أن يكون قد انتفع بما ذكره المفسرون وبخاصة الزمخشري والبيضاوي- لتقدمهما زمنيا عليه- في الفرق بين مجيء الفعل" يفعل" في قصة زكريا عليه السلام ، وبالفعل " يخلق" في قصة مريم عليها السلام، فإنه يمكننا أن نقول في شيء من الثقة والاطمئنان بأن العلامة الكرخي قد تأثر بابن أبي الإصبع لفظاً ومضموناً وإن كان لا يزال هذا الأمر محتملاً، والله تعالي أعز وأعلم.

الموضع الحادي عشر:

يوضح فيه ابن أبي الإصبع أسرار اختلاف الترتيب من خلال الموازنة بين آيتين كريمتين بقوله(ومثال صحة الأقسام من الكتاب العزيز أيضاً قوله تعالي (الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلي جنوبهم)[1] فلم يترك سبحانه قسماً من أقسام الهيئات حتى أتي به، ومثل هذه الآية آية يونس وهي قوله تعالي﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾[2] لكن وقعت بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبتها البلاغة، فتتضمن الكلام بها الائتلاف، وذلك أن الذكر يجب فيه تقديم القيام لأن المراد به الصلاة والله أعلم، والقيام واجب فيها للمستطيع، والقعود بعده عند العجز عن القيام ، والاضطجاع عند العجز عن القعود، والضر يجب فيه

---

(١). آل عمران"١٩١".

(٢). يونس"١٢".

تقديم الاضطجاع، وإذا زال بعض الضر قعد المضطجع، وإذا زال كل الضر قام القاعد فدعا لتتم الصحة وتكتمل القوة، ويحصل التصرف، فإن قلت هذا التأويل لا يتم إلا إذا كانت الواو هي العاطفة عدل عنها وبها يحصل في الكلام حسن النسق وائتلاف الألفاظ مع المعاني إلي «أو» التي يسقط معها ذلك؟ قلت: تأثير الضر علي أقسام : فإن الضر ما يصرع المضرور عند وروده، ومنه ما يقعده، ومنه ما يأتي وصاحبه قائم و لا يبلغ به شيئا من هذه الحالات، والدعاء عند أول مس الضر، فإن الضر والجزع عند الصدمة الأولي فوجب العدول عن الواو لأو لتوخي الصدق في الخبر، والكلام علي ذلك موصوف بالائتلاف ويحسن النسق، والخبر بذلك التأويل الأول عن شخص واحد، وبالتأويل الثاني عن أشخاص، فغلبت الكثرة، فوجب الإتيان بأو، وابدئ بالشخص الذي يصرعه، لأن ضره أشد، فهو أكثر تضرعاً فوجب تقديم ذكره لأن تقديه الأهم، وإذا تقدم ذكر المضطجع أوجب حسن الترتيب أن يليه ذكر القاعد، وأن يلي ذكر القاعد ذكر القائم فحصل حسن الترتيب، وائتلاف الألفاظ بمعانيها، وترجح مجيء أو علي مجيء الواو، ولما تدل عليه من تعدد المضطرين دون الواو»[1]

ليس في كتب المتشابه القرآني كلام حول هاتين الآيتين الكريمتين، غير أنني وقفت علي كلام نفيس للرازى نقله عن علماء التفسير، لعل ابن أبى

---

(١) تحرير التحبير ١٧٥ وما بعدها.

الإصبع قد انتفع مما ذكره المفسرون مباشرة أو مما نقله الرازى عنهم، حيث يقول في آية آل عمران (للمفسرين في هذه الآية قولان، الأول: أن يكون المراد منه كون الإنسان دائم الذكر لربه، فإن الأحوال ليست إلا هذه الثلاثة ،ثم لما وصفهم بكونهم ذاكرين فيها كان ذلك دليلاً علي كونهم مواظبين علي الذكر غير فاترين عنه البتة، القول الثاني: أن المراد من الذكر الصلاة، والمعني أنهم يصلون في حالة القيام، فإن عجزوا ففي حال القعود، فإن عجزوا ففي حال الاضطجاع، والمعني أنهم لا يتركون الصلاة في شيء من الأحوال)[1]

وفي آية يونس ينقل عن الزمخشري قائلاً(فإن قالوا: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟ قلنا: معناه: إن المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء إلي أن يزول عنه الضر، سواء كان مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً.

والوجه الثاني: أن تكون هذه الأحوال الثلاثة تعديداً لأحوال الضر: والتقدير "وإذا مس الإنسان الضر لجنبه أو قاعداً أو قائماً دعانا وهو قول الزجاج"[2].

لعلك تلحظ التقارب الشديد بين ما ذكره الرازى نقلاً عن علماء التفسير وبين ما ذكره ابن أبي الإصبع مما يدعونا إلي القول بانتفاع ابن أبي الإصبع بما ذكره المفسرون قبله، أو لعله من توارد الخواطر، وإن كان أشد إحكاماً، وأنصع بياناً وأكثر قرباً من إصابة المعني الذي توخاه النظم

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٤٠

(٢). المصدر السابق ١٧/ ٥٤ وراجع الكشاف ٢/ ٢٢٧ وما بعدها.

القرآني، حيث أنصح- بكلام لا مزيد عليه- أن هذه المغايرة أوجبتها البلاغة لاختلاف المقامين في الآيتين الكريمتين، فآية آل عمران الحديث عن الذكر المراد به الصلاة، والقيام واجب فيها على المستطيع، والقعود بعده عند العجز عن القيام، والاضطجاع عند العجْز عن القعود، أما آية يونس فالحديث فيها عن الضر، والضر يجب فيه تقديم الاضطجاع ، وإن زال بعض الضر قعد المضطجع، وإن زال كل الضر دعا ربه لتتم الصحة وتكمل القوة ويحصل التصرف، ولهذا السبب روعي الترتيب في الآيتين فحصل بذلك حسن الترتيب وجمال التعبير.

كان هذا هو آخر المواضع التي تحدث فيها ابن أبي الإصبع عن الآيات المتشابهات في النظم القرآني، وقد كانت هذه المواضع التي وقف معها مستجلياً بلاغة القرآن كفيلة بإبراز جهده المتميز ونظرته الصائبة ولمحاته الثاقبة في بيان أسرار القرآن في الآيات المتشابهات.

الخاتمة

وفي نهاية مطاف هذه الدراسة لهذا الموضوع بالدراسة والبحث , الذي من خلاله استطعت أن أبرز جهود ابن أبي الإصبع في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم , أوجز بعض النتائج التي أسفرت عنها الدراسة , منها :

١- أن علم المتشابه القرآني من أجل علوم القرآن الكريم , وأكثرها صعوبة .

٢- أن هذه المواضع التي قام البحث بعرضها ودراستها _ بعد استقصاء دقيق لها من كتابي بديع القرآن , وتحريرالتحبير _ كانت كفيلة لبيان جهود المؤلف في دراسة المتاشبه اللفظي في القرآن الكريم .

٣- تبين من الدراسة أصالة نظرات ابن أبي الإصبع ودقة لمحاته الرائعة.

٤- تبين من البحث أن ابن أبي الإصبع وقف عند بعض الآيات المتشابهات في القرآن , التي لم يرد لها ذكر في كتب المتشابه اللفظي تمثل إضافة تضم إلى جهود العلماء في دراسة هذا العلم .

٥- أن تغيير الصياغة في الآيات المتشابهات بالتقديم أو التأخير أو بالزيادة أو الحذف.لا يعمد فيها القرآن إلى مراعاة الجانب اللفظي بل وعلى مراعاة الجانب المعنوي أيضا, ولهذا من الخطأ أن يزعم زاعم أن القرآن الكريم يراعى فقط التناسب اللفظي, وهذا ما تنزه عنه البيان المعجز .

والحمد لله أولا وأخيرا , وصلى الله وسلم على نبينا الكريم سيدنا محمد بن عبد الله ,وعلى آله وصحبه أجمعين , والحمد لله رب العالمين .

ثبت المصادر والمراجع

أولا القرآن الكريم

ثانيا : المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي , تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ,, طبع مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة , الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

٢- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ , دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن للدكتور / محمد الأمين الخضري .

٣- الأعلام , لخير الدين الزركلي , طبع بدار العلم للملايين ببيروت , الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.

٤- بديع القرآن لابن ،أبي الإصبع المصري , تحقيق الدكتور / حنفي محمد شرف , طبع بدار نهضة مصر بالقاهرة بدون تاريخ .

٥- البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني , تحقيق عبد القادر أحمد عطا , طبع بدار الكتب العلمية ببيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦-١٩٨٦م.

٦- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي , تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم , طبع بدار المعرفة ببيروت , توزيع دار الباز للنشر والتوزيع بمكة المكرمة , بدون تاريخ .

٧- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي،تحقيق الأستاذ محمد على النجار، طبع بدار الكتبْ العلمية ببيروت بدون تاريخ

٨- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان , ترجمة الدكتور محمد النجار , والدكتور رمضان عبد التواب , والدكتور السيد يعقوب بكر , طبع بدار المعارف بالقاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.
٩- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري , تحقيق الدكتور حنفي محمد شرف , طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٣هـ-
١٠- تفسير أبي السعود العمادي الحنفي , تحقيق عبد القادر أحمد عطا , طبع بمطبعة الرياض الحديثة ١٤٠١-١٩٨١م
١١- تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي , الطبعة الثانية ١٤٠٣-١٩٨٣ طبع بدار الفكر بيروت .
١٢- تفسير البيضاوي للعلامة البيضاوي طبع بهامش حاشية الشهاب , دار صادر بيروت بدون تاريخ .
١٣- تفسير التحرير والتنوير للطاهر محمد بن عاشور طبع الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.
١٤- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي , طبع دار الفكر بيروت بدون تاريخ .
١٥- التناسب البياني في القرآن , لأحمد أبو زيد, منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط ١٩٩٢م.
١٦- حاشية محي الدين زاده على تفسير البيضاوي, المكتبة الإسلامية تركيا ١٢٨٣هـ

١٧- حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للشهاب الخفاجي , دار صادر بيروت , بدون تاريخ .
١٨- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي , طبع دار الآفاق الجديدة ببيروت , الطبعة الثانية ١٩٧٧م.
١٩- الذيل الشافي على المنهل الصافي لابن تغري بردي , تحقيق فهيم شلتوت, من مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٩٨٣م
٢٠- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للألوسي , إدارة الطباعة المنيرية , دار إحياء التراث الإسلامي ببيروت, بدون تاريخ .
٢١- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري , طبع بهامش تفسير الطبري بدار الفكر ببيروت ١٣٩٨ه- ١٩٧٨م.
٢٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني, طبع بدار المعرفة ببيروت, بدون تاريخ.
٢٣- الفتوحات الإلهية لسليمان العجيلي الشهير بالجمل, طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر. بدون تاريخ.
٢٤- الكشاف لجار الله محمود بن عمر الزمخشري, طبع بدار الفكر ببيروت. بدون تاريخ .
٢٥- كشف المعاني في المتشابهه من المثاني لبدر الدين بن جماعة, تحقيق الدكتور عبد الجواد خلف , من مطبوعات جامعة الدراسات الإسلامية بباكستان , طبع بمطابع الوفاء بالمنصورة ١٩٩٠م.

٢٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير , تحقيق الدكتور / أحمد الحوفي والدكتور / بدوي طبانه , طبع بدار نهضة مصر القاهرة . بدون تاريخ .
٢٧- مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب أي التنزيل ,أبي بكر الرازي . تحقيق إبراهيم عطوة عوض , طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر , الطبعة الثانية ١٤٠٦-١٩٨٥م .
٢٨- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لعبد الرحيم العباسي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد , طبع بعالم الكتب ببيروت , نسخة مصورة من مطبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٦٧ه- ١٩٤٧م
٢٩- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة , طبع بدار إحياء التراث العربي ببيروت .
٣٠- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه متشابه اللفظ من أي التنزيل لأبي جعفر بن الزبيرالغرناطي , تحقيق سعيد الفلاح , طبع بدار القرب الإسلامي ببيروت , الطبعة الأولى ١٩٨٣-١٤٠٣ه-
٣١- من بلاغة المتشابهه اللفظي في القرآن للدكتور محمد بن على الصامل , طبع بدار إشبيليا للنشر والتوزيع بالرياض , الطبعة الأولى ١٤٢٢-٢٠٠١م
٣٢- نظم الدرر فيتناسب الآيات والسور للبقاعي , طبع بدائرة المعارف العثمانية بالهند , الطبعة الأولى ١٣٩٦ه- ١٩٧٦م .

فهـــرس الحولية .

الموضوع	الصفحة
-مقدمة ----------	٣
- كلمة رئيس التحرير ----------	٥
- إيضاح ----------	٧
- هيئة تحرير المجلة ----------	٩
أولا : أبحاث قسم أصول الدين	
-نيل المرام في الحفظة الكرام ----------	١٣
- جزء من حديث يزيد بن حبيب المتوفى سنة ١٢٩ هـ برواية الإمام الليث بن سعد ----------	٦٧
- الإدراج في الحديث وأثره علي المتن والإسناد ----------	١٣٥
- ندوة العلماء والحفاظ علي الهوية الثقافية لمسلمي شبه القارة الهندية	٢٢٩
ثانيا : أبحاث قسم الشريعة	٢٨٥
-زكاة مال الصبى والمجنون في الفقه الإسلامي(دراسة فقهية مقارنة)	٢٨٧
- التدابير الشرعية لحماية البيئة----------	٣٦٩
- مقتضي النفي الوارد علي أفعال واقعة عند علماء الأصول وأثره في الأحكام ----------	٤٤٩
- حجية المرسل عند الأصوليين ----------	٥١٣

تابع الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
ثالثا : أبحاث قسم اللغة العربية	٥٥٩
-الخصائص البلاغية في قصيدة اليتيمية (لدوقة المنبجى) -------	٥٦١
-ابن أبي الإصبع المصرى وجهوده في البلاغة ----------	٦٤١
- الفهرس ---------- ---------- ----------	٧٠٣